من أوراق الرئيس (7)

الجليد .. يذوب: بين موسكو والقاهرة!

و فى قمة غضبى يتقدم السوفييت – كما هى العادة – " بقائمة الأسلحة " التى لم نطلبها ولم نريدها ؟!

وبعد وفاة الرئيس جمال عبد الناصر كانت أمام الرئيس السادات مشاكل عسكرية وداخلية واقتصادية ومواجهة أمريكا القادرة على الحل.. ولكن الذى لم يره بوضوح فى ذلك الوقت، ومنذ جنازة جمال عبد الناصر، ذلك (المنظر) الجديد للوفد السوفيتى، وتحركات مراكز القوى ضد مبادرة روجرز مما اضطر معه أن يخفى عنهم جزءاً من بيانه إلى مجلس الشعب.

وأخذت الصورة تتضح أمامه تماماً، وكان عليه أن يتحرك بحساب وبسرعة حاسمة قاطعة..

لقـــــد كان المنطق أن يتجه جمال عبد الناصر إلى أمريكا، كما فعل فى خطابه الأخير، وقد جاءت هذه الخطوة بعد عمليات حسابية ومراجعة لتاريخ العلاقة السوفيتية المصرية .. وفى نفس الوقت كان يرى موقف أمريكا من إسرائيل وتدفق السلاح عليها. ويقارن ذلك بالتقتير الشديد عليه ووضعه أمام شعبه فى أحرج المواقف....

وقبل ذلك عرف جمال عبد الناصر مساندة أمريكا لإسرائيل بصورة كاملة واضحة لكل العالم..

ويوم تحدد سفر زكريا محيى الدين لأمريكا لمقابلة جونسون فى آخر مايو 1967، سارع الرئيس جونسون بالاتصال بإسرائيل وأخيرها أنه فى إمكان إسرائيل أن تنقض على مصر وبسرعة. وقد اعترف هو بذلك فيما بعد. واعترف هو واليهود أيضاً، أن خطة حرب 1967 كلها قد وضعت فى وزارة الدفاع الأمريكية. وأن العسكريين

والخبراء الأمريكان قد باركوها. وهم قد باركوها بعد أن تجمعت لديهم معلومات مؤكدة أن مصر لن تقوى على فعل شيء, ولذلك ثم الاتفاق على ضرب مصر. وكل هذه حقائق تاريخية معروفة.

ولكن من المهم أن أرويها لأنها جزء لا ينفصل من الخلفية التاريخية لسلوك جمال عبد الناصر بعد ذلك..

تسبق هذا أيضاً التعبئة العدائية لأمريكا فى مصر وفى المنطقة. ولا شك أن جمال عبد الناصر قد أذكاها وساعد عليها وعلى استمرارها والأمريكان يعرفون ذلك ولن ينسوه. والسوفيت يعرفون له ذلك وإن كانوا قد نسوه.. أو يريدون....

ففى عيد النصر فى بورسعيد يوم 23 ديسمبر سنة 1964 وقف جمال عبد الناصر فى حملة التعبئة ضد أمريكا.. ووجه كلامه إلى أمريكا وجونسون: أنه إذا لم يكفهم أن يشربوا من البحر الأحمر، فليشربوا من البحر الأبيض!.

ولابد أن المراسلين الأجانب قد سألوا كثيرا عن هذه العبارة التى أثارت الجماهير فى بورسعيد وأدمت أيديهم من التصفيق.. ولابد أنهم قد وصلوا إلى معنى واحد هو: أن جمال عبد الناصر لا تهمه أمريكا .. وأن تضرب رأسها فى الحائط.. أو تشرب ماء مالحاً من هذا البحر ومن ذاك البحر أيضاً والمعنى أنه لا يهمه ما تفعله أمريكا مهما تضايقت من الحملة العنيفة ضدها .

ولم يكن صعباً على أجهزة الإعلام الأمريكية أن تزف إلى الشعب الأمريكى فى الكريسماس ورأس السنة هذه التحية من جمال عبد الناصر. بل إن الصحف قد أعلنت بالفعل: أيها الشعب الأمريكى نرجو قبول هذه الهدية من جمال عبد الناصر بمناسبة العيد الجديد: أشربوا مياه البحر الأبيض والبحر الأحمر معاً!.

من الصعب أن تقدر صداها البعيد عند الذين يرون فى جمال عبد الناصر العدو الأوحد .. يكفى أنه الرجل الذى أدخل السوفيت فى الشرق الأوسط، وهو الذى يتزعم العداء لإسرائيل. ولابد أن الشعب الأمريكى قد صدق ذلك بسرعة، لأن لديه استعداداً

للتصديق، ولأنهم لا يعرفون حقيقة ما يحدث فى المنطقة. ولا الذى يعانيه، وقد عاناه، جمال عبد الناصر من السوفيت.

أما لماذا طلب جمال عبد الناصر من الأمريكان أن يشربوا ماء البحرين الأبيض والأحمر؟.. فلذلك قصة. من عادة جمال عبد الناصر، وهو يلقى خطابه أن يضمنه آخر الأنباء، ولذلك كان يطلب أن تجئ إليه آخر المحلية أو العالمية أثناء مواجهته للجماهير. وبذلك يضيف إلى خطابه بعداً إخبارياً أو مزيداً من السخونة المطلوبة. وقد فعل ذلك. فقد قدم له على صبرى، و كان وفتها رئيساً للوزراء، ورقة تقول: إن وزير التموين د. رمزى استينو قد استدعى السفير الأمريكى ليستعجله فى إرسال صفقة القمح المتفق عليها فكان رد السفير جافاً ومهيناً لمصر!.

فثار جمال عبد الناصر وأشعل غضب الجماهير.. ولكن عندما عدنا إلى القاهرة بادر وزير التموين بمقابلة جمال عبد الناصر ليخبره أن شيئاً من ذلك لم يحدث. وأن السفير الأمريكى قد جاء بناء على دعوته. وأنه كان لطيفاً مهذباً. وقال إن المعونة لا يمكن إرسالها قبل موافقة الكونجرس على ذلك.. أى أنها مسألة إجرائية فقط!.

ولم تكن مخاطبة جمال عبد الناصر للرئيس الأمريكى نيكسون عملاً مفاجئاً. ربما كان ذلك مفاجأة للروس أو حتى للأمريكان. ولكن سير الأحداث العميق الأليم فى نفسه يحتم علي أن يتوجه إلى الأمريكان. وكان من رأى جمال عبد الناصر فى ذلك الوقت: أن الصورة واضحة تماماً.. فالأمريكان وحدهم القادرون على فعل شيء.. وأمريكا هى الدولة التى وراء إسرائيل بالمال والسلاح والمساندة الدولية.

وجاءت بعد ذلك مبادرة روجرز التى قبلها جمال عبد الناصر. وكانت المبادرة تضم نقطتين أساسيتين: الأولى: وقف إطلاق النار تسعين يوماً، والثانية: الانسحاب.

ورأى جمال عبد الناصر كلمة (الانسحاب) تجئ لأول مرة على لسان أمريكا، فلم يرد على هذه المبادرة بالرفض أو القبول، ثم اتجه إلى موسكو. وأعلن قبولها. وانفعل برجنيف قائلاً: كيف تقبل حلاً أمريكياً؟

وكان رد جمال عبد الناصر: ليس أمامى إلا أن أفعل ذلك. فأنتم لا تتحركون. وأنا لا أستطيع أن أضيع مصالح بلدى.

وقال جمال عبد الناصر فى ذلك الوقت أشياء كثيرة أجدنى مضطراً أن أمسك عن ذكرها الآن..

وكان وضعه فى غاية الصعوبة. فهو قد هاجم أمريكا.. فهل يهاجم السوفيت أيضاً؟ وإذا فعل ذلك فأين يقف فى هذا العالم؟ وعلى أية أرض؟ ومن الذى يسانده؟ وكيف يواجه دهشة الشعب وهو يراه حائراً بائراً بين الشرق والغرب.. بينما إسرائيل تفعل كل ما بدأ لها من عدوان وحروب أعصاب وشوشرة وتشهير بمصر.. بحكومتها وشعبها وروحها المعنوية وما المعنوية وما تعلنه عن استعدادها للقتال؟

وفى لحظة اليأس التام على مائدة المفاوضات يعلن القادة السوفيت: أننا اقتنعنا بوجهة نظرك: وسوف تقدم لكم هذه القائمة بالأسلحة.

وهو أسلوب سوفيتى يحدث فى المفاوضات. وهو يذكرنا بما يحدث لسباحى المسافات الطويلة عندما يصلون إلى الشاطئ. ويقدم لهم الناس المشروبات والورود ويأخذونهم بالأحضان. وإنه شعور طيب ولا شك. لولا أن هؤلاء السباحين قد أنهكهم البحر والموج. فليسوا قادرين على أكل أو شرب شيء أو حتى أن يردوا هذه التحيات الحارة الصادقة أو حتى أن يقبلوها.. شيء كهذا قد أصاب جمال عبد الناصر فى ذلك اليوم.. لولا أنه لم يكن فائزاً فى سباق المسافات الطويلة.. وإنما دفعه اليأس إلى أى شاطئ!..

فى ذلك الوقت كنت نائباً لرئيس الجمهورية. وقد جمعت اللجنة السياسية بمكتبى فى مصر الجديدة. وعرضت عليهم الموقف وأوصينا بالإجماع برفض مبادرة روجرز.!.

وعندما وصل جمال عبد الناصر إلى المطار فوجئت بأنه قد قبلها وأعلن ذلك أمام قادة الكرملين وقلت: ماذا جرى؟ لقد رفضناها، وأنت قبلتها.. كيف حدث ذلك؟

ولما شرح لى الموقف تماماً... أيقنت أنه على حق. وأنه معذور تماماً فى هذا القرار. فقد جاءت كلمة الانسحاب فى مبادرة روجرز .. وهى خطوة مشجعة. وعلينا أن نمشى وراء أمريكا حتى البيت الأبيض أو حتى البنتاجون. إنها بارقة أمل..

وأثناء وجود جمال عبد الناصر فى الكرملين حدثت مذبحة الفانتوم، فقد أسقطت وسائلنا الدفاعية 12 طائرة إسرائيلية. والفصل فى ذلك يرجع إلى تكنيك جديد نفذه رجال الصواريخ بقيادة محمد على فهمى، رئيس الأركان الآن. ورغم أن هذا الحادث يفرح القلب حقاً، فإن فى ذلك الجو القاتم الملبد باليأس من موسكو لم يكن له فعل السحر أو أى فعل. فالذى يريده جمال عبد الناصر شيء، والذى يريده السوفيت شيء غير الذى نريده نحن.

وعاد جمال عبد الناصر وقد اتجه بآماله إلى الولايات المتحدة لعل وعسى. وجمال عبد الناصر رجل مناور. وهو لذلك فى حاجة إلى أرض واسعة لكى يتحرك عليها. ولكن إذا ضاقت الأرض تحت قدميه. أصبح عاجزاً عن الحركة تماماً. وقد ثبتت قدرته فى المناورة أيام العدوان الثلاثى علينا سنة 1956.

وإذاً لقد قبلنا المبادرة. وبدأنا إقامة حائط الصواريخ وبناء مواقعها..